ممثِّلو روح الفتوة

سـؤال: للفتوة تعاريف شـتّى منذ قديم الزمان، فما معناها، وعلى مَن يُطلق "الفَتَى" في ضوء ظروفنا الراهنة؟

الجواب: الفتوة لغة: الشـباب، وهي مشـتقة مـن الجذر "ف ت ي"؛ واصطلاحًا: تشـبُّع القلب بالإيمان الكامل، وحسـنُ معاملة الناس كلهم، ونـذر العمـر مـن أجـل الآخريـن، وأداءُ المـرء مهامه دون أن يرى نفسـه متميزًا، وبذلُ كلّ التضحيات في سبيل القيم المقدسة، وانتظارُ ما له أجل مسـمى والصبـرُ عليه صبرًا يبلـغ حدّ الجنـون كصبر الدجاجة حتى تفقس بيضها، والثورةُ على كل المسـاوئ والشـرور مـع مراعـاة العصر والزمان الـذي نعيـش فيه، ودون إهمال العقل والمنطـق، والثباتُ وعدمُ الفزع من الأذى والمشقة التي تنتج عن كل ما ذكرنا.

رُوي في الأثر: "**لَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ وَلَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقَار**"(١٤)

يشـير هـذا إلـى أن سـيدنا عليًّا كـرّم الله وجهه بطلٌ يمثـل الفتوة بكلّ معانيهـا؛ والحـقّ أن الفتوة تمتد إلى ما قبل سـيدنا علي ﷺ بكثير، فلنا أن نعدّ كلًّا من الأنبياء العظام ممثّلًا حقيقيًّا للفتوة في أعلى مسـتوياتها لأنهم أفنوا حياتهم في سـبيل رسـالاتهم، ورغم أنّ منهم من لم يتّبعه إلا بضعة أشخاص ومنهم من لم يتبعه أحد إلا أنهم مضوا في دعوتهم ولم يفتروا.

(١٤) انظر: العجلوني: **كشف الخفاء**، ٤٤٧/٢.

obeikandl.com

ترقُّب النتيجة من الله ﷻ فحسب

إن الأنبياء العظام عليهم السلام أدَّوا رسالتهم على أكمل وجه، وواصلوا أداءها بوعي وفطنة في ضوء الأوامر التكوينية، وتصرفوا في كلّ حال بحِكمة بالغة، ومع ذلك كله لم يترقبوا النتيجة إلا من الله ﷻ، وهذا بعدٌ آخر من أبعاد الفتوة.

أجل، إن تحرّقَ المرء شوقًا وعشقًا في البداية لأداء الواجب، ثم اطمئنانَه في النهاية إلى أنه قد قام بواجبه، كلاهما معًا مؤشرٌ مهم على روح الفتوة؛ وبتعبير آخر: ثمة أمر شديد الأهمية في خدمة الإيمان والقرآن، ألا وهو أن يَشْغَلَ عقلَ المرءِ على الدوام -وهو يقوم بمهمة الإرشاد والتبليغ- أنِ "الحمدُ لله أنني امتثلتُ أمر ربي وإن لم يتبعني أحد، وله الحمد أنه لم يحرمني من تبليغ هذه الرسالة"، وأنْ يمضي في مهمته بلا خنوع ولا انكسار ولا يأس ولا قنوط.

لقد قام الممثلون الحقيقيون لروح الفتوة على مدار التاريخ بتبليغ رسالتهم حتى عندما أُشهِرت لهم المقاصل، فلم يعبؤوا بقمع السادة والكبراء واضطهادهم، واستخفوا بالحياة ومضوا في طريقهم؛ فهذا عيسى عليه السلام لم يتوانَ قطُّ في التضحية بروحه في سبيل رسالته رغم ظلم الرومان وقمعهم، ومحاولة طائفةٍ التنكيلَ به وتأليبَ الرومان عليه؛ ثم وجَّه نظرَه إلى العالم الآخر وارتقى إلى مرتبة حياتية مختلفة؛ فيمكن أن يقال: إن الفتوة التي كان يمثلها عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كانت مرقاةً لرقيّه إلى الأفق الذي هو فيه الآن.

وفي قصة سورة الكهف حول رحلة موسى عليه السلام وفتاه ولقائه بالخضر بعدٌ آخر للفتوة؛ فهذه القصة تشير إلى بعد من أهم أبعاد الفتوة وهو

الخروج من سجن قوالب الطبيعة الضيقة والانفتاح على رحابة ما وراء الطبيعة للرقي إلى مستوى حياة القلب والروح، ثم التطواف باستمرار في هذا المدار؛ وإن كانت الجسمانية تستمرّ بقدر الحاجة ولا تنعدم جذريًّا في مثل هذا المستوى من الحياة إلا أن الرغبات والأهواء تتقهقر في سلم أولويات المرء؛ ولمثل هذه القصص دلالات مهمة منها أن على المؤمنين ألا يكتفوا بعلوم الظاهر فحسب، بل عليهم طلب العلم اللدنّي باستثمار عوالم قلوبهم وأرواحهم.

الفتوة والتفاني

من أهم مقوِّمات الفتوة أن يتحلّى المرء بروح التفاني؛ أي أن ينذر نفسه لغايته المثلى، ويطرح ما سواها، وعلى الروح المتفانية أن تقول: إن وظيفتي الحقيقية هي إعلاء كلمة الله والسعي الدؤوب لتحقيق هذا الهدف المنشود.

والحقّ أن كلمة الله في نفسها عالية كما أسلفنا مرارًا، ولكن لا بد من بذل الجهد ليسمعها العالَمُ كله؛ فعلى من تفانى في سبيل غايته المثلى أن يهرول وراء هذه الغاية بمشاعره وأفكاره وسلوكه وأفعاله كلِّها، وأن يتضرع إلى الله تعالى أن يثبّته على هذا الأمر؛ لا بدّ لمثل هذا الإنسان أن يفيض قلبه بالرغبة في إحياء الآخرين حتى ينسى -وهو على ذلك- طريقَ بيته ووجوهَ أولاده، إلا أن علينا أن نذكر أن مِن أسُس الخدمة الإيمانية أداء المرء لما عليه تجاه أولاده وأبويه وكل من لهم حق عليه.

الفتوة والثبات

ومثل التفاني في الأهمية في هذا المقام الثباتُ والشموخ، فعلى المرء أن يثبُت حيث هو، ويقول كما قال "إبراهيم تنوري"[١٥]:

(١٥) **إبراهيم تُنُوري** (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م): شاعر صوفيٌّ، له دواوين شعر منها: "كُولْزار معنوي (حديقة الورد المعنوية)"، و"كُولْشَنِ نِياز (بستان التضرع)".

ما أعذب البلاء إن كان من جلالِهْ

وما أحلى الوفاء إن كان من جمالِهْ

ففي الجمالِ لطفُهُ وقهرُهُ سواء

ونقصد بالشموخ ألّا يُصاب المرء بالذعر فيتداعى ويسقط، وألا يتخلى عن رسالته مطلقًا مهما كلّفه الأمر، وإلا فالأجدر بالمؤمن أن ينحني كعلامة الاستفهام بين يدي ربه ﷻ، بل ويخرّ على وجهه ساجدًا، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فلنميز بين هذين الأمرين.

الفتوة الحقيقية هي الفناء عن الذات

أهمّ سِمَة لا بد أن يتميز بها مَن نذروا أنفسَهم لحركة المتطوعين هي ألا يروا أنفسَهم متميزين رغم أدائهم المتميز.

فإذا ما اطّلع المراقبون على ما يبذلون من تضحيات فلربما يقولون: "قليلٌ في هؤلاء وصفُهم بـ"المثاليين"؛ لأن لهم عمقًا معنويًّا خاصًّا لو مُزّق أحدهم أشلاءَ ووُضع المنشار على رأسه فجُعل نصفين، ومُشِط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فلن يصرفه ذلك عن رسالته؛ ورغم كلّ هذه التضحيات عليهم أن ينقشوا في أرواحهم أنهم لا يتميزون عن غيرهم بشيء، بل لا ينبغي أن يرِدهم هذا الخاطر، فإن مر بهم خاطرٌ كهذا قسرًا فليُهرعوا إلى سجّادة التوبة فورًا وكأنهم اقترفوا أمرًا عظيمًا؛ أما ما يجري على أيديهم من جماليات فيرون أنها جميعًا نتاجٌ لِتفتُّح أزاهير بذور ألقاها مَن كانوا قبلهم، ثم غدت براعمَ تنمو وتُزْهِر، فسنابلَ في كل سنبلة منها ألف حبة، فهذه الجماليات ناجمة عن صدق سلفنا وإخلاصهم في جهدهم وسعيهم، وشاء الله أن يوافق عصرُنا وقتَ العناية بتلك البذور وعزق الأرض وتعهدها بالتنقية والنظافة لتغدو هذه الفسائل أشجارًا تُثمر؛

فأنى لنا أنْ ننسب لأنفسنا كلّ هذه الجماليات؟! إنه لَبخس لحقّ سلفنا ووقاحةٌ وصفاقةٌ بين يدي الله تعالى.

ولا عبرة في مقام الفتوة بالعمر أو المقام أو المنصب أو الخبرة؛ فقد يتوهم الإنسان أنّ له ميزةً على غيره لإقبال الناس عليه لعمره أو مقامه أو منصبه أو خبرته، والحقّ أنّ توقير من بدأ حمل هذه المهمة قبل غيره هو مقتضَى الأدب والتناغم بين السابق واللاحق؛ أجل، إنّ من وسائل تحقيق التوازن والتناغم بين الأفراد احترامَ الصغار للكبار وحسن الظن بهم بشرط أن يكون دون مغالاة أو مبالغة، ودون الدخول في أنانية الجماعة الأمر الذي ينفّر الآخرين؛ وليُعلَم أنّه إن لم يتحقق من نوقّرهم بالفناء عن الذات، وإن لم يدرّبوا أنفسهم على أن يروها "صِفْرًا" فقد تساورهم الأوهام والادعاءات ويعشقون المناصبَ المعنوية التي وهبَها لهم مَن أحسن الظنَّ بهم، فرب قائلٍ: "قد بلغتُ من العمر الستين، وأنا أستاذ كبير في نظر كثيرين، وها هم يجثون بين يدَيّ على الركب، ومعنى هذا أن لي ميزة"؛ فمثل هذه الخواطر نذيرٌ بالخطر ونافذة لزيغ الإنسان وضلاله، ومحوه وهلاكه؛ أمّا لو رأى المرء أن تحقيق مقتضى الخبرة مَسؤوليةٌ حتميةٌ تقع على عاتقه فهذه مسألةٌ أخرى؛ لكن إن ردّ إقبالَ الناس عليه إلى خبرته وذكائه وفطنته، واتخذ ذلك وسيلة للتحكم فيهم، فذاك شططٌ بيّن ووقاحة مضاعفة.

التواضع سمة لازمة للفتوة

ثمة حكمة يعزوها بعضهم إلى سيدنا عليّ ﷺ: "كُنْ بين الناس فردًا من الناس"، فمن أراد أن يكون ممثِّلًا حقيقيًّا للفتوّة فعليه أنْ يكون فردًا من الناس حتى لا يراه الناس متميّزًا عن غيره.

وأرى أن هذا مبدأ أساس وبُعد مهم للفتوة؛ لم يُكتب لي أن أصحب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي لأرى حياته، لكن سمعت من طلابِه من الرعيلِ الأول في الخدمة أنه ﵀ لا يميز نفسه عن طلابه ألبتة رغم أنه أستاذهم، وله يد عليهم، ويعرِّف نفسه دائمًا بقوله: "أخوكم"، وأشار إلى هذا في رسائل النور، فقال: "إن أساس مسلكنا ومنهجنا هو الأخوة في الله، وإن العلاقة التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية، وليست علاقة الأب بالابن ولا علاقة الشيخ بالمريد، وإن كان لا بدّ فمجرد العلاقة بالأستاذ؛ وما دام مسلكنا هو "الخليلية" فمشربنا إذًا "الخلّة"، والخلة تقتضي أن يكون الأخلاء بعضهم لبعض صديقًا صدوقًا، ورفيقًا مضحّيًا، وأخًا شهمًا غيورًا..."[١٦].

ولنا في علاقة الرسول الأكرم ﷺ بصحابته أسوة حسنة، فكلّما عرف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم شخصيتَه أكثر، ووقفوا على الحقّ والأدب الذي يقتضيه هذا المقام وذلك الموقف تضاعف احترامهم وتوقيرهم ولطفهم في معاملتهم له صلوات ربي وسلامه عليه، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق﵁ الذي جعله الله تعالى صرحًا للجماليات: خطيبٌ مِصْقَع يسحر السامعين، وإذا قرأ القرآن أثّر حتى على المشركين، لكنك تراه بين يدي رسول الله ﷺ ناكس الرأس، يقف وكأنّ على رأسه الطير، وأظن أننا لو جمعنا كلماته بين يدي رسول الله ﷺ لما زادت على مائتين.

فمن ذاك الذي حاز كلّ هذا القدر من التقدير والاحترام؟

هناك قول أثبت الأولياء صحة معناه وإن قال المحدّثون بأنه لم يثبت حديثًا: "لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ"[١٧]؛ إنه ﷺ مُرشدٌ ومبلِّغٌ لا مثيل له في

(١٦) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٤.

(١٧) انظر: العجلوني: **كشف الخفاء**، ١٩٢/٢.

شـرح كتاب الكائنات وفي تفسير القرآن الكريم المصدر الأول للتشريـع، فتوقير الصحابة له واجبُهم وحقٌّ له عليهم.

أجـل، لا يكفـي أن يهبّ الأحياء من مجلسـهم احترامًـا له عندما تطأ قدمـه موضعًـا ما، بـل إن على رميم العظام أن تهبّ مـن مرقدها توقيرًا له ﷺ؛ ورغـم ذلك كان رسول الله ﷺ يقول: **"لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا"**(١٨).

وكان ﷺ يخدم نفسه بنفسه في مطعمه ومنامه ونحو ذلك، ولو أَذِن لَما تركه أهلُ بيته أو الناسُ يقوم بشـيء من ذلك أبدًا، ولكن سـيد الأنام عليه أفضـل الصلوات والسـلام لم يكن ليأذن؛ لأن عظمـة الكبار في التواضـع والفنـاء والحياء، أمـا التكبر والخيلاء فهو عقدة نفسـية لدى الصغار، فإنه لا يليق بالعظماء استغلال توجه الناس إليهم بالتحكم فيهم.

ولـم يفعل رسـول الله ﷺ شـيئًا ممـا لا يليق به قط؛ أجـل، كلّ ما كان يفعلـه يليـق به للغاية؛ حتـى إن الملأ الأعلى ليغبطـه ويَعجب لِما يقوم به من أعمال.

وقصـارى القـول أن حياتـه السـنيّة ﷺ فيهـا أروع نماذج الفتـوة بكلّ أبعادها وأعماقها كما كان في مكارم الأخلاق جميعها.

(١٨) سنن أبي داود، الأدب، ١٥١.

obeikandl.com

مهندسو الفكر وبُناة المستقبل

سؤال: يذكر بعضُ المعلِّمين -أنه عدا المعاناة من الضيق المادي والمشاق- قد يتأثرون أحيانًا بمشاكسات الطلاب وعزوفهم عن العلم والتعلم، فما قولكم في هذا؟

الجواب: لو وضعنا المبادئ الدينية نصب أعيننا لتبين أنَّ التعلّم والتعليم وظيفتان علويتان مرتبطتان بما وراء السموات، وفي كثير من الآيات والأحاديث الشريفة إشارات إلى أهمية العلم وحضٌّ عليه، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٩/٣٩).

وعندما تحدّث القرآن الكريم عن فضل سيدنا آدم عليه السلام على الملائكة أبرز ميزته في موهبته وقدرته على تحصيل العلم، وهذا له مغزى عميق في حديث القرآن الكريم عن أهمية العلم، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣١/٢-٣٣).

ويُفهم من هذا أن أهم خاصية فضلت الإنسانَ على الملائكة هي تعلُّمه الأسماء، أي استعداده وقدرته على تحصيل العلم.

obeikandl.com

وَرَثَةُ منهاج الأنبياء

وجّه سيدُنا رسول الله ﷺ الأنظارَ إلى أن العلم هو ميراث النبوة، قال: **"إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"**[١٩].

وقال في حديث آخر: **"إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا"**[٢٠]، ولفت الأنظار إلى أهمية العلم والتعليم.

إذًا المعلّم ممثِّل لمهمة سامية، وهو صانع فكرها ومهندسها، واليوم يمكن للمعلِّم الذي جعل همَّه دعوتَه أن يُنير عقول طلابه وأرواحهم باستغلال كل إمكانيات العصر، وسبر أغوار العلوم، والاستفادة من كل فروع المعرفة مثل الرياضيات والأحياء والفيزياء والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا؛ وعليه يُقال: إنّ التعليم هو أنسب الطرق لإشادة الصروح العظام في باب صياغة الإنسان؛ من أجل هذا أولى القرآن الكريم هذا القدر من الأهمية للتعليم، وأكثرَ رسول الله ﷺ في حديثه عن هذه المسألة، فكلّ من ينشد النفع لوطنه وأمته والبشرية جمعاء عليه أن يتحمل كلَّ المشقات وأن يبذل وسعه في هذا السبيل رغم كل شيء، وأن يستخدم هذه الأداة النافعة بكلّ قوة.

ساحةُ تأثيرٍ تمتد من الطالب إلى بيئته

نعم لا يُعتد شرعًا بشهادة الأطفال لكنها نفسيًّا هي أمضى الشهادات، فهم إن قالوا صُدِّقوا، والمثل التركي يقول: "سَلِ الطفلَ"؛ فإذًا ليس الطالب هو المخاطب الوحيد للمعلِّمين، لأن لكل طالبٍ أقرباءَ كأصوله وحواشيه،

(١٩) سنن أبي داود، العلم، ١؛ سنن الترمذي، العلم، ١٩.

(٢٠) سنن ابن ماجة، المقدمة، ١٧.

وعندما يرجع من المدرسة يقصّ عليهم ما جرى فيها مع معلّمه، وكيفما يفعل المدرِّس في تصرفاته وأخلاقه يروي الطفلُ لعائلته، فيقول عن معلمٍ أحبه وتعلّق به: إن معلّمنا يعاملنا بأخلاق سامية، يسمع شكوانا، ويحلّ مشكلاتنا، فإن حزِنّا سرَّى عنا وأذهب كلَّ همومنا وغمومنا؛ وبهذا يحسن أولياء الأمور الظنَّ بالمعلِّم، وإن استطاع المعلِّم اقتناص زيارة أولياء الأمور أو مناسبات أخرى لبِنَاء حوار بنَّاء معهم صار الطلبة بذلك قنوات لشبكة علاقات بعدَّة عائلات؛ وبذلك يمكن أن تصل عناية المعلم بالطالب ورعايته له إلى أسرة الطالب أيضًا، بل إلى كل ذي قربى بهذه الأسرة، فتتسع مساحة تأثيره.

وأرى أنَّ مهمة كهذه لها هذا القدر من المكتسبات جديرة بأن يقوم بها الفرد مهما كانت المشاق والعقبات، وبأن يكتفي بما يسد الرمق إن لزم ذلك، وألا يرى من العقبات المادية كضعف الراتب مشكلةً تَثنيه عن أداء رسالته، فالمال ليس ركنًا في كل شيء، بل ربما كان أشد الناس فقرًا على وجه البسيطة هم الأنبياء، ومع ذلك تربّعوا في قلوب الناس، ووجهوهم إلى الخير، ووهبوا للدنيا كلها حياة جديدة، ولا أقصد أن يكون الفقر المصطنع وسامًا للمعلّمين، بل أريد أن أبين أن المال ليس كلَّ شيء، وأن لدينا أنواعًا أخرى من الثراء مثل: كسب القلوب، والنفوذ إلى الأرواح، وتوجيه الناس نحو غايات سامية.

ولقد حاز التعليم أهمية بالغة خاصة اليوم؛ إذ حوَّلت الأنشطةُ التعليمية العظيمة العالمَ قرية صغيرة؛ هذا ويُلاحظ أن من المعلِّمين من يُكره الطلاب على أشياء دون اكتراث لردود أفعالهم، أما أنتم فعليكم أن تجتهدوا بالاعتماد على الودّ واللطف للانطلاق برحلات قلبية إلى قلوب الناس، فالتعليم طاقة كامنة وراء كل ما تقومون به.

ومـن الضروري تشـجيـع الطلاب على كل المسـتويات لسـلوك هذا السبيل، وتحفيزهم على التعليم؛ وليس لكلامي هذا مفهوم مخالفة، فمثل التعليـم العنايـةُ بجميـع المهن التي تنهض بالمجتمـع وتُنعشـه، فلا يجوز إفسـاح المجـال لوقـوع أي ثغـرة أو قصور فـي مناحي الحيـاة المختلفة، ولكن لا ننسى أنّ للتعليم مكانةً خاصة في إحياء المجتمـع.

كسبُ قلوب تدعو لنا طوال العمر

أما مسـألة مشاكسـات الطلاب وعدم مبالاتهم بالتعلُّم فلنعترف بدايةً أنَّ مثـل ذلـك قـد يصدر عـن أي طالـب، فالجانب الأهم فـي التعليم هو الاعتـراف بمثـل هذه المشـكلات وتحمّلها والصبر عليها، هـا أنتم ترون النَّحّـاتَ يبـذل جهدًا كبيرًا حتى يصنـع من الحجر القاسـي الصلد تمثالًا، ويتصبب عرقًا ويتعب ليجعل هذا الحجر في قالبٍ ما بعد نحته وتشكيله؛ وليسـت مهمة المعلِّم بأيسـر من ذلك، فهو يحاول أن يعالـج هذا الإنسان الخـام، ويحـتّ كل أطرافـه المدببة ويشـكّله حتى يصل به إلـى أن يكون إنسانا حقيقيًّا، أو قل: إنه كالصائـغ يعالـج الجواهر المكنونة لدى الإنسان ويعمل على إقامة صرح روحه؛ أجل، إنه مثل الفنان يعيد صياغة الإنسان من جديد.

ورغـم هذا كله قد يوجد طلابٌ يختلقون المشكلات ويُخلّون بالنظام العـام، فيلـزم عندئـذ مقابلة أوليـاء الأمور وتطبيـق برامج بديلـة للتوجيه والإرشـاد؛ وذلك للحيلولة دون إضرارهم بمن حولهم، وللحفاظ عليهم ما أمكن، مثال ذلك استدعاء أولياء الأمور إلى المدرسة ليشاهدوا أبناءهم عـن بعد، ثم نعمل معًا لإيجاد سـبلٍ شـتّى للعلاج بالتشـاور بيـن المعلِّم وولي الأمر.

لقد أخرج الرسولُ الأكرمُ محمد ﷺ معلِّمينَ للحضارة الإنسانية من بين أشدِّ الناس همجية وبداوة وتعصبًا لعاداتهم واختلاقًا لأعذار يسفكون بها الدماء؛ وبذلك أصبح ﷺ حبيبًا للقلوب، حتى إن منهم مَن دخل على سيدنا رسول الله ﷺ وهو بين صحابته، وصاح قائلًا: "أيُّكم ابنُ عبد المطلب؟"، ثم جاء اليوم الذي لان فيه قلبه وجلس في حضرته ﷺ يستمع إليه وكأن على رأسه الطير.

هذا هو أعظم تعليم وإرشاد؛ أجل، إن الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام قد جعلوا من أشدِّ الناس همجية وبداوة أناسًا صدِّيقين وتيجانًا فوق رؤوسنا؛ فمن الممكن أن يقع مثل هذا في كل وقت وحين؛ وعلى ذلك فمن المفترض أن يكابد المعلِّم ويعاني ويتكدّر، ولكنه في النهاية سيكسب أناسًا يدعون له طوال العمر، وسيُكتب له في سجل حسناته مثل حسناتهم، فالظفر بنتيجة كهذه تستحق منا مزيدًا من التحمل أيًّا كان قدره.

وقد لا يستطيع المعلِّم أن يصل بطلابه إلى المستوى المنشود، وقد لا يفوز بجميع الطلاب الذين مدّ لهم يد العون، فكم من الناس انفضّ عن أعظم المرشدين الممتازين فخابوا وخسروا، فما على المعلِّم إلا أن يبذل ما في وسعه في هذا السبيل، ثم يفوّض الأمر إلى الله بارئ الثمرة، وليُعلَمْ أنّ المعلِّم لو عدّ هذه المهمةَ أولى أولوياته، ثم انشغل بهذه الوظيفة وتجرّع الآلام كي يوفيها حقها، فلا جرم أن الله تعالى لن يخيّب سعيه أبدًا، وسيتغمده بفضله وإحسانه، ويلهمه سبل الحل والرّشاد.

ما مِن معضلة إلا ويحلّها لسانُ الحال

مسألة مهمة لا ينبغي أن نغفلها في التعليم، ألا وهي أثر الأسوة الحسنة ولسان الحال في إرشاد الطلاب وتوجيههم، فإن الإنسان ينزع إلى الشر، ويجنح إلى الشهوات وسيئ الأخلاق مِن غضب وحقد وعداوة

واعتداء على الحقوق، فمن المفترض أن ينحدر إلى أسفل سافلين إن أسلمناه لأهوائه؛ ولا يتأتى قمع أهوائه وتنمية ميوله الطيبة إلا على يد مرشد يُقتدى به في سلوكياته وأفعاله.

وأخيرًا أريد أن أبوح ببعض مشاعري، وأرجو ألا يُعد هذا تفاخرًا: أنا ابن الرابعة والسبعين لو عُهِد إليّ بوظيفة في كوخي الخشبي الصغير في "كستانه بازاري"[٢١] لهرولت لأدائها، ولعلها في نظر بعضكم أمر صغير يسير، لكنني لا ولن أعدها كذلك ألبتة، حتى إن بعض الناس قد يعد مطالعتي مع الإخوة هنا وانشغالي بالطلاب أمرًا يسيرًا صغيرًا، بيد أنه عندي أعظم الوظائف التي تأخذ بيد الإنسان وتبلغ به أعلى الدرجات.

وحُمادَى القول أن على الإنسان أن يقدر التعليم قدره ويجلّه، ويدرك أنه مهمة الأنبياء، فالحقيقة أنه من المتعذّر أن نجد بين مَن يخدمون الأمة إنسانًا يَعدِل المعلِّم؛ لأن خدمة الناس واستثمارهم أعلى من كل شيء، فلا شيء يعدل إرشاد بضعة أشخاص وتوجيهَهم حتى وإن كنتَ بستانيًّا لكل حدائق العالم وبساتينه، والسلطنة أيضا لا تعدل الرقيّ بالناس إلى مستوى الإنسانية، ألم يتربَّ الحُكّامُ العظام على أيدي معلِّمين عظام؟

وهكذا فبعد أن نضع هذا الأمر نصب أعيننا نقول: إنَّ أقربَ الناس إلى الله ﷻ هم المعلِّمون الذين نذروا حياتهم لنفعِ غيرهم؛ لأن هؤلاء هم مَن يُعيدون صياغة الإنسان، ويبنون المجتمع، ويشيدون الواقع، ويصنعون المستقبل.

---

(٢١) لما عمل المؤلف مديرًا ومدرِّسًا في "كَشتانَه بازاري" -معهد لإعداد طلاب العلوم الشرعية- أقام في كوخ خشبي صغير جدًّا بجانب المعهد.

التعفُّف والاستغناء طوال العمر

سـؤال: يُقال: إن التعفُّف والاسـتغناء من أهمِّ مقومـات روح التفاني، فـما الأمور التي تجب رعايتها ليتمكّن المرء من المحافظة على خُلق التعفف والاستغناء في مراحل حياته كلها؟

الجـواب: أنـوّه بدايةً أنّ الغنى في الاسـتغناء بالحقِّ عـن الخَلق، بل إن من اسـتغنى بوسـعه أن يتحدّى الخَلق جميعًا بهذا الخُلُقِ؛ فمن يحلّق بروح الاستغناء يضـع بينه وبين الأهواء والتشوفات المادية والمعنوية كافّة حجابًا ويغلِق الأبواب ويوصدها، فلا تذلّه المنّة، ولا يشعر بالامتنان لأحد سوى الله تعالى.

الذل والخنوع من أجل المنصب

علينا ألا ننسى أن الاستغناء ليس سلوكًا مقصورًا على موقفنا من المال والملـك والثروة الحقيـرة، بل هو أيضًا الثبات والصمـود في وجه المقام والمنصـب والتقديـر والتهليل وشـتى أنـواع الرغبات والأهواء النفسـية؛ فلـو عـزم عليـك الناس بإصرار أن تتقلّـد منصبًا أو رتبـة كأن تكون مديرًا أو مستشارًا أو نائبًا في مجلس الشعب، فحاسب نفسك وقل لها: "يا تُرى هل يمكنني أن أحافظ على روح الاستغناء وأنا في هذا المنصب؟!".

obeikandl.com

أي حاسبها قائلًا: "ما الدافع للحصول على هذا المنصب، أهو الهوى أم السعي في خدمة الأمة لنيل رضا المولى ﷻ؟"؛ فإن تحكمت النفسانية بالنفس فعليك أن تقاوم ذلك الهوى.

ورُبَّ قائل: "لو تعين علينا جميعًا الاستغناء عن بعض الوظائف والمناصب فستظلّ شاغرة؟!"

وجوابه أنه لو وُجد كفء لهذا المنصب وقدَّمتَ نفسَك فهذا يثير الضغائن والحسد، ويفضي إلى النزاع والشقاق، فلو اجتمع عشرة أئمة أَكْفَاء في مسجد، ثم تقدمتَهم إلى المحراب، فهذا ضررُه أكبر من نفعه؛ لأنه لا بد أن أحدهم سيؤمّ الجماعة.

وأمرٌ آخر ذكره بديع الزمان سعيد النُّورسي: "على المرء أن يؤثر التبعية على المتبوعية التي تنذر بالخطر وتقتضي تحمّل المسؤولية". أجل، إن الإمامة أمرُها جلَل؛ فالإمام يتحمل تبعة المأمومين جميعًا، فإذا أخطأ تحمّل تَبِعة الجماعة كلها، ومثل هذا لو أنّ محافِظًا قصّر لَتحمّل وِزر أبناء المحافظة جميعًا، وكذا لو أن الرئيس ارتكب خطأ يضرّ بالشعب، فسيرحل إلى الآخرة وهو محمَّلٌ بأوزار الشعب كلّه.

إذًا على المرء أن يُؤْثِر دور الناخب لا المنتخَب؛ لأن الخطأ ديدن كلِّ من يحرصون على الفوز بالانتخابات، أما من لم تهمّه نفسُه وسعى ليتقلّد الأكفأ أيًّا كان فقلّما يُخطِئ.

أَصعبُ الاستغناء

ذروة الاستغناء في هجر المرء لمدح النفس، وتذمُّره إذا مدحه الناس؛ أجل، على المؤمن الكامل أن تستشعر أعماقه أنّ المدح قدح وإن راق لنفسه الأمّارة، بل عليه أن يسأل نفسه قائلًا: "إنما أبتغي الجزاء في الآخرة،

فلماذا يقدّمه الناس إليّ الآن، يا ترى هل أنا مَن دفعهم إلى ذلك؟"، ثم يؤثر سبيل العجز والفقر، فيقول: "اللهم أَنْسِني نفسي، وكرِّه إليّ الحديث عنها".

قد يستغني الإنسان عن المال والملك، بل قد يُعرِض عما يُعرَض عليه من مناصب كأن يكون واليًا أو محافظًا أو نائبًا في مجلس الشعب أو مستشارًا، ولكن الاستغناء عن التقدير والتبجيل أصعب من هذا كلّه؛ فمن الأهمية بمكان أن يبدأ الإنسان فيتخذ موقفا حازمًا من كلّ ما يُوجّه إليه من تقدير وحفاوة، وألا يواري الباب لهذا الضرب من الآمال والتشوفات، وأن يحثو التراب في أفواه المدّاحين والحامدين حتى يغلق المنافذ دون هذا السبيل.

تربويّون مجهولون تواروا وراء خشبة المسرح

إنني أعدّ أصدقاءنا التربويين الذين يعملون في مجال التعليم والتربية في كثير من الدول من أعظم الناس تضحيةً في عصرنا؛ لأنهم انفتحوا على العالم في ظروف صعبة، ورَبّوا طلابًا سيخدمون للحبّ والإنسانية؛ ثم آثروا البقاء وراء خشبة المسرح في حفلات يُعرض فيها شيء من ثمرة جهودهم، واكتفوا بتصفيق الملايين وتهليلهم لطلابٍ أشرفوا على تربيتهم وتعليمهم؛ اللهم لا تخيّب ظنّنا فيهم، فإنّا لنرجو أن يواظبوا على أداء أعمالهم بصدق وإخلاص كما عهِدناهم.

ورأى بعض الفضلاء العارفين بالجميل تكريمَهم وشكرهم إذ إنّهم مصدر هذا الأمر ومهندسوه، بيد أنهم آثروا الخفاء والتواري وراء خشبة المسرح؛ والحقُّ أن هذا هو السلوك الأمثل الذي كان عليهم القيام به.

أجـل، علـى مَن ينثر البذور في التـراب أن يرحل إلى الآخرة مجهولًا متواريًا، ولا يشـغلن نفسـه بمن يحصد سنابلها ولا بمَن يدرسها، ولا بمَن يأتي بالغلال إلى الجَرِين، بل ينبغي ألا يتعلّق قلبه برؤية الثمرة.

أجل، إنّ أسمى أمانينا -نحن المؤمنين- أن تعلو كلمة الله ﷻ وترفرف خفّاقةً في أنحاءِ العالم كافّة، وأن تصبح حقيقةُ "لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله" هي صدى القلوب المؤمنة وأنفاسَها في كلّ مكان؛ ولو كانت لنا ألف روح لَمـا تأخرنـا في التضحية بها في سـبيل تحقيق هـذه الغاية؛ حتى إني -أنـا الفقيـر البائس- أيضًا لَأعد هذه الغاية أعظـم أمنية ورغبة في الحياة، وأحيانًا تفيض عيناي بالدموع وأنا أقول: ليت صدى "لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله" يتردّد في كلّ مكان.

ورغم هذا الشـوق والحماس فإنك إن أسهمتَ في تحقيق هذه الغاية المثلـى ولو بقدر ضئيـل، ولحقتَ بهذه القافلة المباركـة، فأرى أن عليك أن تقول: "وا شـوقاه إلى مجيء ذلـك اليوم، يومِ نموّ ثمرات هذه الجهود وظهورها، وبُعدًا ثم بُعدًا للتصفيق والتهليل والتقدير والتبجيل من مدّاحين يقولون: "كانت لهذا الرجل يدٌ في هذا الأمر، حسـبي أن أشـاهد -وأنا في العالَم الآخر- هذه الغاية السامية عاليةً خفّاقة في أنحاء العالم كافّة".

بل على المرء أن يتمثل شـعور الاسـتغناء الحقيقي، وأن يسـعى إلى إدراك أفقه، فيقول: "قد تفرز مشـاركتي في هذا الأمر مشـكلات وعثرات، فالأفضـل أن أخرج من هذه الدنيا وأتوارى تحت التراب، وأشـاهد -وأنا في العالم الآخر- تصريف الأمور الربانيّة".

الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله

أهمّ وسـيلة للحفاظ على روح الاسـتغناء هي التخلّق بخلق "الإيثار"؛

فعلى إخواننا في حركة المتطوعين أن يتحلّوا بهذا الخلق، حتى إن عليهم أن لا يكتفوا بالتضحيات الماديّة كالإطعام والسُقيا والتبرع بالراتب، بل وعليهم أن يؤثروا الآخرين بالفيوضات المعنوية؛ أجل، عليهم أن يروا غيرهم أجدر منهم بالمقامات المعنوية، وأليق منهم بالكرامات؛ وعليهم ألّا يتوجَّهوا إلا إلى ربِّهم ويؤثروا رضاه على كل شيء، ويقولوا دائمًا: "حسبُنا الله ونعم الوكيل".

هذا هو روح الإيثار وخلق الاستغناء بمعناه الحقيقيّ، وإننا لَأحوجُ ما نكون إلى هذا الخلق في أيامنا هذه.

والحاصل أن على هؤلاء أن يُعرضوا عن المكاسب الدنيوية من مقام ومنصب وتقدير وتبجيل وتهليل، بل وعليهم أن يُعرضوا في هذا السبيل عن المقامات الأخروية -من وجه- وألّا يتشوفوا إليها، وأن ينتظروا النعم الأخروية من فضل الله وكرمه وسعة رحمته؛ إذ إنه لا سبيل للحصول على أي قيمة إلا بفضل من الله وإحسانٍ منه ﷻ، فلن يدخل أحدٌ الجنة أو ينجو من النار بنفسه؛ إن ذلك محض فضل وإحسان ورحمة من الله ﷻ، فإن أعرض الإنسانُ عن كل شيء سواه فتح الله له الأبواب جميعها؛ نعم، أَوصِدوا الأبوابَ دون الدنيا تجدوا أن الله ﷻ قد أبدلكم ألف بابٍ بالباب الذي أوصدتموه، لأنه سبحانه بيده مفاتيح كلّ شيء.

أجل، لو أردتم أن تتفتّح أبواب الإحسان والرضا والمدد الرباني فأوصدوا الأبواب دون كلّ الآمال الدنيوية.